المحاضرة الخامسة (فرويد)

أساليب البحث Techniques of inquiry

يتعلق هذا القسم باساليب او طرق البحث التي بواسطتها جمع فرويد البيانات التي كونت أساس نظريته ، واذا كنا سنعرف كلمة بحث بشكل عريض بمعنى التحري الناقد المستنفذ ، عندئذ يمكن ان نطلق على هذا الجزء اسم طرق البحث ، ولكننا عمدا لم نسمها كذلك ، لان البحث في علم النفس اصبح يعني حصرا تقريبا البحث المختبري التجريبي المسيطر عليه تماما الذي يعزل فيه متغير واحد من اجل الدراسة ويعالج من اجل تحديد تأثيراته على السلوك.

لم يجر فرويد ولا اغلب منظري الشخصية الذين يحويهم هذا الكتاب تقصيهم او بحثهم بهذه الطريقة ، والأساليب التي استخدموها تختلف تماما في طبيعتها وهي في العادة تخدم غرضين (1) جمع البيانات عن طبيعة الانسان التي بموجبها يبنون ويطورون نظرية الشخصية (2) وتستعمل كاسلوب للعلاج هدفه مساعدة الأشخاص المضطربين ، يتركز بحثنا بصورة رئيسية على الهدف الأول.

اعتبر فرويد كما نعرف اللاشعور على انه القوى المحركة الرئيسية في حياتنا ، تكبت كل صراعات طفولتنا من شعورنا الواعي.

اعتقد فرويد بان هدف علم النفس التحليلي هو ان يعيد تلك الذكريات المكبوتة والمخاوف والأفكار الى مستوى الشعور الواعي Conscisus awareness.

لكن كيف يستطيع الفرد ان يسير غور هذا الجزء غير المنظور من العقل هذا الميدان المظلم الذي ليس حتى في متناول انفسنا نحن ؟ ومن خلال عمله مع العديد من المرضى ، اوجد فرويد طريتين أساسيتين في البحث ، التداعي الحر وتحليل الاحلام.

التداعي الحر : Free assotiation

بنى فرويد هذا الأسلوب الأساسي" القاعدة الرئيسية لعلم النفس التحليلي ، على مدى سنين عديدة في اشتغاله مع مرضاه ، واصلها او منشأها مدين بالكثير الى جوزيف بريور Josef Breuer طبيب نمساوي سبق ذكره صادقه فرويد خلال سنواته الأولى في ممارسته الخاصة للطب ، وجد بريور في معالجته شابة تشكو من الهستريا ، بان وضعها تحت التنويم المغناطيسي يمكنها من استعادة التجارب والاحداث المكبوحة ، واستدعاء او استرجاع الاحداث يحيي التجربة الثانية الى حد ما يجلب الراحة من اعراض اضطراب.

استعمل فرويد نفسه هذا الأسلوب مع بعض النجاح واطلق لفظ التنفيس (تطهير العواطف) Catharsis (مأخوذة من الكلمة اليونانية التي تعني التطهير) على العملية– بعد فترة من الزمن ترك التنويم المغناطيسي ، واحد أسباب ذلك هو الصعوبه التي كان يواجهها في تنويم بعض الأشخاص ، وبنى فرويد طريقه جديده لمساعده المرضى لاستعاده الماده المكبوته ، في هذه الطريقه يستلقى المريض على اريكه ويشجع على الاسترخاء قدر الامكان ويطلب منه التركيز علي احداث الماضي ، ينشغل المريض في نوع من احلام اليقظه

بصوت مرتفع ، قائلا كل ما يرد الي عقله ويطلب منه ان يعبر بصوره تلقائيه عن كل فكره او صوره تماما كما تحدث بغض النظر عن تفاهتها او كونها مربكة او مخجله او حتى اذا كانت الفكرة أو الذكريات مؤلمة يجب أن لا يكون هناك أي حذف، إعادة تنظيم أو إعادة بناء للذكريات .

وجد فرويد من خلال استعماله للتداعي الحر ، بأنه في بعض الأحيان لا يعمل بكل حرية ، بعض التجارب أو الذكريات كانت مؤلمة جدا بحيث لا يمكن التكلم عنها ويرفض المريض الكشف عنها.

اطلق فرويد على هذه اللحظات اسم المقاومات ، وشعر بانها ذات اهميه عظميه داله على القرب من مصدر مشاكل المريض واعتبرها اشاره الى ان العلاج يسير في الطريق الصحيح و انها يجب ان تستمر في سير غور اعماق تلك المنطقه ان جزءا من مهمه التحليل النفسي هو تفكيك المقاومات او التغلب عليها لكي يستطيع المريض ان يواجه التجربه المكبوتة.

وجد فرويد بان الذكريات المريض كانت بشكل محتوم تجارب الطفوله ، حقيقيه او خياليه كانت في أغلب الأحيان ذات طبيعه جنسية ، ويعزى القسم الاعظم من تأكيد فرويد على السنوات الاولى من الحياه كمصدر لكل العصابات اللاحقه بسبب افتنان وتركيز مرضاه على خبرات الطفوله.

تحليل الاحلام : Dream analysis

اخبر بعض المرضى فرويد من خلال التداعي الحر ، اخبروه عن احلامهم وبدأ باستعمال هذه الاحلام كاساس لتداع ابعد وذلك عن طريق الطلب من المريض لان يستعمل التداعي الحر Free assotiation مع الملامح الخاصة او الاحداث التي تظهر في الحلم ، وجد فرويد ان الاحلام غالبا ما تكتشف عن مهمة مكبوتة.

استخدم فرويد أيضا عدا الأسلوب للقيام بالتحليل على نفسه ، عندما كان فرويد يستقظ في كل صباح كان يكتب أحلامه لليلة السابقة بعدئذ يستخدم التداعي الحر عليها ، واعتقد فرويد بضرورة هذه الطريقة حيث انه استمر باستعمالها لتحليل نفسه كل حياته.

اعتقد فرويد بان الاحلام تمثل بشكل مقنع او رمزي الرغبات المكبوتة ، والمخاوف والصراعات ، هذه المشاعر كانت مكبوتة بشكل قوي لا يمكنها ان تظهر الى السطح الا بشكل مقنع اثناء النوم ، لذلك ميز فرويد بين جانبين من محتويات الاحلام الاحداث الحقيقية في الحلم (المحتوى الظاهر) والمعنى الرمزي الخلفي لتلك الاحداث (المحتوى الكامن).

من خلال عمله مع المرضى ، وجد فرويد رموزا ثابته في الاحلام – احداث تعني او تدل على نفس الشيء لكل مريض تقريبا ، قال فرويد على سبيل المثال بان درجة السلم ، والسلم تمثل الجماع الجنسي ، والشموع والحياة وجذع الشجرة تمثل القضيب ، الصناديق ، البلكونات والابواب تعني جسم المرأة ، مع ذلك حذر فرويد انه بالرغم من هذه العمومية العالية الظاهرة لبعض الرموز ، الا انها يجب ان تفسر في اطار صراع الفرد ، بالإضافة الى ان عدة رموز هي خاصة بالمريض الذي في المتناول ويمكن ان يكون لها معاني تختلف كثيرا عن مريض اخر.

وصفة مميزة أخرى للاحلام هي انها تكشف الصراعات بشكل مركز ومكثف ، علاوة على ذلك امن فرويد بان أي حدث مفرد في الحلم له مصادر عدة في احداث الحلم نادرا ما تنتج من سبب واحد.

من المهم ان نلاحظ ان فرويد بانه يمكن ان يكون للاحلام أيضا أساسا من الحياة اليومية Mundane وليست كلها بالضرورة نتيجة للصراعات فالمنبهات الفيزياوية مثل حرارة الغرفة او الاحتكاك بشريك الشخص يمكن ان يسبب احلاما من طبيعة خاصة ، يمكن ان تحدث الاحلام استجابة لمثيرات داخلية مثل اضطرابات المعدة ، كلا الاسلوبين

التداعي الحر والتحليل الحلم – يكشف للمعالج الكثير من المادة المكبوتة ، لكنها جميعا على شكل مقنع او رمزي ، بعدئذ يواجه المعالج المهمة الصعبة ، وهي تفسير او ترجمة المادة للمريض.

شبه فرويد هذه العملية بعمل عالم الاثار في إعادة بناء بناية او مجتمع انهدمت واندثرت بفعل تراكم السنين المتلاحقة وكما يعيد عالم الاثار بناء بناية من الأجزاء المحطمة كذلك يعيد المحلل النفسي بناء تجربة من شظايا ذكريات مدفونة لذلك يعتمد الكثير على مهارة وتدريب وخبرة المحلل النفسي.

اعتمد فرويد في صياغة نظريته للشخصية على مهارته في ملاحظة وتفسير الأدلة والشواهد ، غير فرويد نظريته عندما اقتضت شواهد جديدة او عندما اقتضى تفسير جديد للادلة القديمة ، لكنه بقى القاضي الأوحد لصحة البيانات ولصدق النظرية التي بناها منها.

مفهوم فرويد لطبيعة الانسان

لم يعطنا فرويد صورة جميلة او متفائلة لطبيعة الانسان – في الحقيقة عكس ذلك تماما ، فالفرد هو قبو مظلم تكون الصراعات فيه دائما في حالة غضب محكوم علينا بهذا الصراع عن طريق قوانا الداخلية – كفاح محكوم علينا **ان** نخسره كل الناس محكوم عليهم بالقلق لاعاقة بعض النزوات الدافعة على الأقل ، التوتر والصراع دائما متواجدان ونحن باستمرار نحصن انفسنا ضد القوى الهي التي تقف دائما بيقظة من اجل الإطاحة بنا.

اعتقد فرويد بوجهة نظر جبرية بما يتعلق بالإنسان ، كل شيء نعمله ونفكر به (وحتى الحلم) كان مقررا مسبقا بواسطة قوى متعذر بلوغها وغير مرئية داخلنا فنحن دائما بقبضة غرائز الحياة والموت ، شخصيتنا في الكبر محددة كليا بواسطة التفاعل الذي حدث قبل ان تصل الى عمر الخامسة في وقت كان لنا سيطرة محددة فقط على حياتنا ، نحن محكوم علينا بواسطة تلك التجارب الأولية التي غطتنا بغطاء ابدى محددة كل حركاتنا.

وماذا عن ذكاء الانسان وقوى العقل والمنطق – القدرات التي ترفعنا فوق مستوى الحيوانات ؟ الا تستطيع تلك القوى للفكر والعقل ان تحررنا من القبو المظلم ؟ لا ليس بالنسبة لما يعتقده فرويد ان فكرة الشخص العاقل المسيطر على مصيره يعمل تلقائيا على أسس العقل والمنطق تنهار تحت العبء الثقيل للهى فالهي سيدنا وليس العقل ، الفكر والعقل هما خادمتان فقط تعملان فقط في خدمة رغباتنا الأولية شغل شاغل طوال الوقت ، في انجاز هذه المهمة فان الانا التي تعمل من خلال ميكانزمات الدفاع ، يجب ان تحرف او

تخفي الحقيقة ، فكيف اذن في غياب ادراك النفس الواقعي والمضبوط يستطيع التفكير المنطقي او الاشكال الأخرى من العقلانية ان يكون لها أي قيمة.

من المفيد ان نتساءل اذا كانت طبيعة الانسان التي وضعها فرويد بهذه الألوان السوداء تعكس وجهة نظره الخاصة ، في بداية هذا الفصل شرحنا إمكانية ان خبرات الطفولة يمكن ان تؤثر في نظريته للشخصية كما تؤثر في شخصيته ، وصف فرويد نفسه مره بانه " متشائم مبتهج " وما عنته هذه هو ان شعور فرويد نحو الافراد الذين قابلهم تختلف عن شعوره نحو الإنسانية ككل ، فنحن الافراد اعرب عن اتجاه مطبوع على الحب ومتفائل (ما لم يختلفوا مع وجهة نظره) لكن احكامه على عامة الناس كانت قاسية، اعتبرهم دهماء ، لا قيمة لهم قائلا بان " اغلبهم تافهون " هذا الحكم القاسي ينعكس في نظريته للطبيعة الإنسانية.

تعليق نهائي :

كان لنظرية فرويد تأثيرا استثنائي phenomenal غير اعتيادي على علم النفس والطب النفسي ، وعلى مفهوم الإنسانية لنفسها وعلى فهم الشخصية الانسان ، يعتبره البعض على انه احد العظماء المساهمين في الحضارة ، ويضعونه في مصاف كارل ماركس ، والبرت انيشتاين او المسيح ، وسواء اتفقنا او اختلفنا مع نظريته فليس هناك انكار لأهمية فرويد ، نحن نرى يوميا برهانا على أهميته في حقيقة ان الكثير من الناس في مختلف ضروب الحياة يعرفون اسمه ، ان لم يعرفوا تفاصيل نظريته ، يجله العالم اجمع ، على الأقل عن طريق حقيقة الاعتراف او التسليم وهذا وحده يجعله مرشحا للقائمة الصغيرة من الافراد الذين كانوا بالغي الأهمية في تاريخ الحضارة.

وسوف نرى شواهد اكثر على أهمية فرويد ونحن نشرح منظري الشخصية الاخرين ، ان عددا كبيرا من علماء النفس والطب النفسي لا يزالون يستعملون عمل فرويد ، اما كنقطة انطلاق او كأساس للمعارضة التي يبنون عليها نظرياتهم ، تحدث الأفكار العظيمة ليس فقط بسبب كونها تدرك على انها صادقة وحقيقية ، لكن أيضا عن طريق النظر اليها على انها غير صحيحة ، وبالتالي تؤدي الى تطوير وجهة نظر أخرى.

ليس هناك ثمة حاجة للتوسع في عرض نظمه فرويد ، والمهم قبل ان نترك فرويد هو ان تحاول ان نضع منجزاته في اطار او في سياق الانتقاد المشروع ، فالنقد المستنفذ لفرويد – او لاي من هؤلاء المنظرين – ليس هو المقصود ، بالأحرى تمشيا مع قصد هذا الكتاب ، وهو ان نقدم للقارىء الخطوط العامة او المبادئ الرئيسية ، ونكهة النظريات ، ولن اعمل اكثر من تقديمك للانتقادات.

الكثير من النقد صدر عن علماء النفس التجريبين الذين يناقشون بان علم النفس التحليلي (مع اغلب نظريات الشخصية الأخرى) ضعيف من وجهة نظر الأسلوب العلمي وبناء النظرية ، بين هؤلاء النقاد من يرى ان بيانات علم النفس التحليلي لم يتم الحصول عليها بطريقة منظمة ومسيطر عليها (مختبريا) وان الفرضيات المختلفة التي تكون النظرية لم تكن قد قامت على البيانات بأسلوب منظم او بأسلوب يمكن اثباته تجريبيا.

هذه المناقشات بالتأكيد صحيحة ، لكن كما لاحظنا في الفصل الأول ، هناك فروق عظيمة ومهمة بين المنحنى السلوكي التجريبي لسلوك الانسان ، والأسلوب او المنحنى الذي يأخذه اغلب منظري الشخصية.

هذان المنحان يمكن النظر اليهما كنظامين متميزين بلغتين وطريقتين وهدفين ومادتين مختلفتين ، اذا اخذنا روح السلوكية على انها الطريقة الوحيدة المتقنة لدراسة الناس ، عندئذ ستكون اغلب الأساليب المعاصرة ناقصة كثيرا او غير كافية ، ومع العلم ان السلوكية قدمت مساهمات كبيرة لفهم طبيعة الانسان الا انها لا تملك الحق الكلي لتلك الدراسة ، يملك علم النفس التحليلي مجموعة مختلفة كليا من الفرضيات ، والطرق والاهداف ، وحقيقة هذا الفرق الواضح يحول في نظري ، دون الحكم عليها بقياس السلوكية.

هناك انتقادات واسئلة من منظرين اخرين للشخصية سنناقش الكثير منها في الفصول اللاحقة ، اشخاص اخرون بنوا نظرياتهم الخاصة ليواجهوا ما يعتقدون بانه اضعف عيب في صياغات فرويد.

ويناقش العديد من الناس بانه فرويد وضع تأكيدا كبيرا على القوى البيولوجية كمقولبة للشخصية ، بعض النقاد يختلفون بشدة مع توكيد فرويد على الجنس والعداء ويعتقدون باننا نتأثر بتكويننا اكثر بواسطة التجارب الاجتماعية منها بواسطة التجارب الجنسية ، يختلف نقاد اخرون مع الصورة المحددة لنا التي رسمنا فيها فرويد كضحايا غير فعالة او سلبية لغرائزنا وصراعاتنا ، فهم يعتقدون باننا نملك إرادة حرة اكثر مما أعطاه فرويد واننا نستطيع ان نختار لان نعمل وننمو تلقائيا ونملك على الأقل سيطرة جزئية على مصيرنا.

ركزت انتقادات أخرى على تأكيد فرويد على السوك السابق الى حد استبعاد او اغفال التطلعات المستقبلية ، يقول هؤلاء النقاد باننا نتأثر بالمستقبل بقدر مساوي لتأثير الحاضر ، بما نأمل او نخطط لعمله بمثل او بأكثر مما مر بنا من التجارب قبل الخامسة من عمرنا ، ويشعر فريق اخر من منظري الشخصية بان فرويد وضع او غالي بالتأكيد على الذين يعانون من امراض انفعالية غير الناضجين والمضطربين الى حد استبعاد الشخص الصحي الناضج ، اذا كنا نرغب في تكوين نظرية لشخصية الانسان يقول هؤلاء النقاد يجب ان ندرس افضل الأشخاص واكثرهم صحة ، وليس المضطربين – العواطف الإنسانية الموجبة لا السالبة فقط.

التعريفات الغامضة لبعض مفاهيم فرويد كانت مثار تساؤل بين النقاد الا ان ما يرونه هو فرضي بل وتناقض في الفاظ مثل الهي ، الانا ، والانا العليا ، هل هي بناءات او تراكيب بدنية او مستويات في الدماغ؟ هل انها عمليات مانعه ووظائف؟ هل انها منفصلة بشكل حاد عن بعضها البعض؟ ويجدر بنا ان نلاحظ بان فرويد نفسه في كتاباته الأخيرة تكلم عن الصعوبات والتناقض في هذه وفي مفاهيم أخرى.

ثمة شواهد من دراسات انثروبولوجية لحضارات مختلفة تعارض فرضية فرويد الأساسية والتي تقول بان الأسس البيولوجية للشخصية لها الصفة الشمولية ، وقد وجد تباين كبير في سلوك الانسان عبر الحضارات ، وان افتراض عالمية الغريزة هو موضوع تساؤل ، توحي البيانات بان أساليب تربية الطفل هي اكثر أهمية في تكوين الشخصية من القوى البيولوجية الموروثة ، مثال ذلك هناك حضارات لا يكون

فيها تحريم ضد الاتصال الجنسي مع ان تحرم الشريعة الزواج بهم والتي تعرف فيها عقدة اوديب قلق الخصى او حسد القضيب.

هناك منظرين بقوا مخلصين في القسم الأكبر من نظرياتهم لافتراضات فرويد الأساسية ووجهة نظره العامة ولو انهم تحدوا بعض فرضياته ، هناك تحد كبير وجهه الى التحليل النفسي من هؤلاء الموالون هو توكيد موسع على الانا ، بدلا من ان تكون خادمة الهي ، تكون الانا في الادراك الجديد اكثر استقلالا عن الهي تمتلك طاقتها التي لا تشتقها من الهي ، ولها وظائف خاصة بها منفصلة عن الهي تغير اخر قام به الموالون هو تقليل أهمية القوى البيولوجية كمؤثرات في الشخصية في صالح القوى الاجتماعية والنفسية.

من هذا الاستعراض المختصر للانتقادات والتساؤلات والتغيرات المعاصرة لنظام فرويد ، نستطيع ان نرى ان الصيغ الاصلية قد لا تكون ملائمة او مناسبة في العقد الأخير من القرن العشرين كما كانت في بداية القرن ، بتغيير الزمن يجب ان نبحث باستمرار عن طرق احدث وافضل للنظر او للبحث في انفسنا.

هذا الكتاب هو تاريخ للتبصر الحديث في الطبيعة الإنسانية ، نحن في نمونا الشخصي والاجتماعي لسنا أحرارا من الماضي ولا يجب ان نرغب في ان نكون كذلك فالماضي يقدم لنا الأساس الذي بنى عليه مثلما فعل المنظرون اللاحقون حيث بنوا نظرياتهم على نظرية فرويد.

اذا لم تخدم نظرية فرويد أي هدف غير هذا هو ان تكون الهاما للاخرين ، واطارا يطورون في داخله تبصرا جديدا – عندئذ تكون أهمية فرويد لعالم الأفكار مضمونة ، فكل بنية تعتمد على سلامة أسسها وكمالها ، اعطى فرويد نظرية الشخصية أساسا متينا يستدعي التحدي للبناء عليه.